Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الأطلال:

قد مات والدُها وماتتْ أمُّها ومضى الحِمامُ بعمِّها والخالِ
وإلى هنا حبَس الحياءُ لسانَها وجرى البكاءُ بدمعها الهطَّالِ

ويقول إنه وقف ينظر إليها، وكأنه عابد فى هيكل ينظر إلى تمثال من تماثيل الجمال، غير أن نوائب الدهر ما زالت تختلف عليها حتى زايلها كل جمال. وحنا حافظ عليها فحمل هيكل عظمها - كما يقول - إلى دار لرعاية الأطفال، وتناولتها منه بالرفق أيد طاهرات، كأنها أيدى أمهات يكلأن أطفالهن، وسرعان ما رعاها طبيب. وودّعها حافظ وقد اطمأن أنه تركها بين أهلها، ويثنى على منشئى مثل هذه الدار الذين يوالونها هى وأمثالها بالبرّ ابتغاء وجه الله. وبمثل ذلك كان يحرّك النفوس لتستشعر الرحمة وتبذل أموالها للملاجىء والجمعيات الخيرية لأيامه. وكان ماينى يدعو إلى النهوض بالتعليم وإنشاء الجامعة والمدارس، وله فى طلب العون لمدرسة بنات ببور سعيد قصيدة بديعة يقول فيها بيته المشهور:

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعْددتَها أعْددتَ شعبًا طيِّبَ الأعْراقِ

وظنّ كثيرون - حين رأوه فى رثائه لقاسم أمين لا يقطع بإصابته ولا بخطئه فى دعوته إلى تحرير المرأة - أنه لم يكن من نصرائه فيها، وقالوا لعله خشى من تشهير أعدائها به كما شَهَّروا بقاسم صاحبها، وفاتهم أن حافظًا كان شجاعًا جريئًا، وكان إذا رأى الرأى لم يخش فيه لومة لائم، وأيضًا فاتهم أن لحافظ بائيّة لم تنشر فى ديوانه حيًّا بها قاسمًا ودعوته قائلًا:

أقاسمُ إنَّ القومَ ماتتْ قلوبُهمْ ولم يفقهوا فى السِّفْرِ ما أنت كاتبُهْ
ولو خَطَرتْ فى مصرَ حَوَّاءُ أمُّنا يلوح مُحَيَّاها لنا ونراقبه
وفى يدها العَذْراءُ يُسْفِرُ وَجْهُها تُصافح مِنَّا مَنْ ترى وتخاطبه
وخَلْفهما موسى وعيسى وأحمدٌ وجيشٌ من الأملاك ماجتْ مواكبُهْ
وقالوا لنا رَفْعُ النِّقابِ مُحَلَّلٌ لقلنا: نعم حقٌّ ولكنْ نُجانبه